

روافد الفكر عند المغول في ضوء الأسطورة والخرافة

أ.م.د. إسراء مهدي مزيان

جامعة واسط/كلية التربية

المقدمة

بُني تاريخ المغول في نشأتهم الأولى على القصة والأسطورة والخرافة والتلقين أكثر من التدوين، لأنَّ معظمهم لم يعرفوا القراءة والكتابة. وضمت تلك القصص والأساطير والخرافات بطولاتهم عبر التاريخ الأمر الذي جعلهم يتمسكون بها ويعودها جزء لا يتجزء من تراثهم بقصد تمجيد بطولاتهم وحفظ تاريخهم ومما عزز أهمية الخرافات والأساطير عندهم تناقلها المغول بينهم جيلاً بعد جيل .

لقد اقتضت طبيعة الدراسة الخوض في حياتهم الدينية ومعرفة مدى إيمانهم تلك الأفكار الأسطورية التي بنى عليها المغول حياتهم؛ لذلك نرى أن الأسطورة كانت محل إيمان لدى تلك الشعوب التي لم يقف حدَّ الأثر والتأثر بها عند حدودهم الجغرافية، بل أثروا بفكرهم الأسطوري وتأثروا بما يجاورهم من البلاد المحيطة بهم فكان من الصعب الممتنع معرفة البدايات لظهور ذلك الفكر المبني على الأسطورة عند المغول، غير أننا حاولنا تتبع روافد انطلاق حيثيات أفكارهم من منطلق إيمانهم بمعتقداتهم الدينية التي غلب عليها الطابع الأسطوري، ومن ثم جاء بحثنا هذا ليسلط الضوء على منطلقات الفكر فبدأنا حديثنا عن معناها لغة واصطلاحاً، مع بيان مدى اهتمام المغول بها لاسيما أنهم لم يكونوا الشعب الوحيد الذي أظهر اهتمامه بالأساطير والخرافات فحسب، إنما ظهرت لدى الشعوب القديمة كالرومان واليونان والعرب المسلمين؛ فالأسطورة في حقيقتها إنما هي سرد لقصة، تصف الأعمال الفذة والمآثر العظيمة لمخلوقات ما وراء الطبيعة وتجليات القوى السماوية.

وفي ضوء ما ذكرناه؛ تناول البحث الأسطورة وإيمان المغول بها لاسيما أنَّ تاريخهم يحمل الكثير من الأساطير التي أوردها بعض المؤرخين التي طالما ارتبطت أفكارهم الأسطورية ارتباطاً وثيقاً بحياتهم سواء ما كان منها اجتماعياً أو دينياً، ذلك الارتباط الذي ملء فكر المغول بأنَّ هنالك عناية إلهية تختص بهم.

وتتطرق البحث إلى أثر الفكر الأسطوري في قوانين المغول ومعتقداتهم وكيف أنّ جنكيز خان هذا الرجل الذي رسم ونظم قوانين المغول ونمط حياتهم وفق تلك القوانين نرى أنه أعاد من جديد النظر في تلك القوانين ومدى أثرها على شعبه ومقدار إفادتهم منها وخاصة الجانب الديني الذي كان هو المحور الأساس لكل قوانينهم لاسيما الديانة الشامانية التي بنيت عليها الكثير من أفكارهم الأسطورية عبر تاريخهم الطويل. وشكلت هكذا دراسة في البحث حول تاريخ المغول الأسطوري صعوبة بالغة لعدم وجود الوثائق التاريخية المدونة لتاريخهم منذ نشأتهم، لكونهم كما أوردنا ذكره شعباً اعتمدت على التلقين لا التدوين وبانت حياتهم في صراع مع الشعوب المجاورة رغبة في البحث عن مواطن أفضل للعيش واستمرار بقائهم مع قسوة الحياة التي عاشوا تحت كنفها تلك الحياة التي تمثلت ببيئتهم التي كانت هي محوراً لكل أفكارهم الأسطورية فضلاً عن حياة القتل والقتال التي مارستها تلك الشعوب، ومن ثم جاءت أفكارهم الأسطورية لتمجد لهم تاريخاً لم يعرف بفترات متأخرة، أما بدايات هذا التاريخ فلم يكن أكثر من رسم من رسوم الأسطورة والخرافة.

المبحث الأول - مفهوم الأسطورة والخرافة:

أولاً - الأسطورة:

عُرفت الأسطورة في معاجم اللغة العربية بمعاني عديدة، إذ عرفها صاحب اللسان في مادة (سطر): سطرٌ والسطرُ الصفُّ في الكتاب والشجر والنخل ونحوها... والأساطير: الأباطيل، والأساطير: أحاديث لا نظام لها، واحدها إسطار وإسطارة بالكسرة وأسطيرُ وأسطيرة، وأسطورة بالضم^(١).

ولا يختلف (الفيروز آبادي) (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م) في شرح مادة أسطر و سطر: "إذ يرى أن الشيء كالكتاب والشجر وغيره، جمع أسطر وسطُور والأساطير الأحاديث لا نظام لها جمع أسطار وأسطير بكسرها وبالهاء في الكل، سطرٌ سطيراً ألف..."^(٢). وعرفها (الزمخشري) (ت ٥٣٨هـ/١١٤٣م) بقوله: "سطر واستطر: كتب... وكتب سطرًا من كتابه وسطرًا وأسطراً وسطوراً وأسطار وهذه أسطورة من أساطير الأولين: مما سطر من أعاجيب أحاديثهم"^(٣).

وعلى ذلك لا نجد اختلافاً في معنى كلمة أسطورة، إذ اتفق جميع أصحاب المعاجم على معنى الأساطير، ثم إنّ الكلمة خاطب الله بها تعالى عباده، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا

أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ^(٤)، وذكر (الطبري) (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م) في تفسيره أن المقصود بالأساطير هو أساطيع الأولين أي بمعنى أنها أساطير سطرها الأولين بما كتبوه من أخبار الأمم^(٥).

ولم يختلف الباحثون كثيراً - كما ذكرنا سابقاً - في معنى الاسطورة، فمنهم عرفها: أنها "مزج بين الواقع والخيال، فهي قصة خرافية يسودها الخيال، وتبرز فيها قوى الطبيعة في صور كائنات حية ذات شخصية ممتازة، ويبني عليها الأدب الشعبي"^(٦)، وهي بذلك مزج من الخيال والواقع ويزيد الرواة فيها مع مرور الزمن فتصبح غنية بالأخيلة والحدث والعقد^(٧).

وهناك جمع من الباحثين قرروا بأنه لا يوجد تعريف مُرضٍ واحد للأسطورة، كقول أحدهم: "تظراً لكون الأساطير تخدم أغراضاً مختلفة كثيرة... فمنذ بداية الوجود البشري، عملت الأساطير لتكون تبريرات لغوامض الحياة الأساسية...؛ لذلك في رأيه أن مجتمعات الزمن الغابر في جميع أنحاء العالم ابتكرت الأساطير، أساطير الخلق، أساطير الانبعاث، والأنظمة المعقدة لكائنات فوق الطبيعة لكن منها قوى معينة، وقصص حول أفعالها"^(٨).

وعلى ذلك يمكن أن نقول: إنَّ الأسطورة هي حكاية من التاريخ القديم يمكننا أن نستعملها لشرح الأحداث لتبين رغبة الناس في معرفة بداية الوجود الإنساني والحضارات التي كانت قائمة.

ثانياً- الخرافة:

وردت كلمة الخرافة في اللغة بمعاني عديدة، إذ ذكر (الفيروز آبادي) أنَّ الخرافة هي الحديث المستملح كذب، وفي كلامه كرجل من عذرة استهوته الجن فكان يحدث بما رأى فكذبوه وقالوا: "حديث خرافة"^(٩). وذكر (الأزدي) (ت ٣٢١هـ/٩٣٣م) أنَّ الخرف فساد العقل من الكبر خرف الرجل يخرف خرفاً فهو خرف وأمراً خرفة^(١٠).

والخرافة هو مثلاً يضرب عند سماع ما لا يعرف صحته والخرافات عند الناس هي كلمات لامعة لها مأخوذة من هذا^(١١). فهي مثل حكاية مصاص الدماء إذ ذكر أحد الباحثين المعاصرين ذلك بقوله: "إنَّ مصاص الدماء خرافة يزعمون فيها أنَّ جُنة تعود للحياة تقوم عن قبرها في الليل وتمتص دماء الناس أثناء نومهم"^(١٢).

ووضح (ابن خلدون) (ت ٨٠٨هـ/٤٠٦م) ذلك بقوله: "كثير ما يعرض للسامعين قبول الأخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم، كما نقله المسعودي عن الأسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الإسكندرية، وكيف اتخذ صندوق الزجاج وغاص في قعر البحر حتى صور تلك الدواب الشيطانية التي رآها وعمل تماثيلها من أجساد معدنية ونصبها حذاء البنيان ففرت تلك الدواب حين خرجت وعابنتها وتم تصويرها في حكاية طويلة من أحاديث خرافة مستحيلة"^(١٣).

ومن هنا يتضح معنى الخرافة فهي تخيلات من فلكلور الشعوب القديمة، عبارة عن أمثال مختلفة ثقافية واجتماعية آمن بعضهم بها وتشائم البعض الآخر منها باعتبار أنها خرافات لا منفعة منها.

أولاً: أثر البيئة في فكر المغول الأسطوري

كان للبيئة التي نشأ عليها المغول أثر واضح في رسم ملامح أساطيرهم ففي هضبة منغوليا ظهرت تلك القبائل منطلقة من شمال صحراء جوبي بين بحيرة بايكال في الغرب وجبال خنجان الذي شكل حاجزاً منيعاً بين الأقاليم الصينية الحارة وبين الأراضي الباردة في سيبيريا وكانت تلك القبائل المغولية تقطن المنطقة الممتدة من سور الصين العظيم إلى بحيرة بايكال، ولم تكن تلك الهضبة إلا سهل متسع ومتنوع تغطيه طبقة من الحجارة شديدة الصلابة، إذ جردتها الرياح الشديدة من التربة والرمال لاسيما وأن مناخ هضبة منغوليا قاسي يندر وجوده في منطقة أخرى فهو يبلغ النهايات العظمى في الحرارة والبرودة وفي جفافه الشديد وقوة الرياح العاصفة التي لاحد لها، أما البرودة فهي الغالبة في معظم أيام السنة بسبب طول فصل الشتاء^(١٤).

ومع طول فصل الشتاء يتجمد الماء في المنخفضات حتى يتحول شتائهم إلى جليد صلب وقاسي كما أن الصيف لا يكاد يبدأ حتى ينتهي وتبلغ الحرارة في فصل الشتاء في بعض الجهات (٥٨) درجة تحت الصفر أما في فصل الصيف القصير تبلغ درجة الحرارة (٦) درجة مئوية^(١٥).

ومما يزيد من قسوة مناخ منغوليا إن الرياح تهب في معظم أيام السنة شديدة عاتية حتى أنها تحمل معها الحصى وتنقله إلى مسافات بعيدة مما يجعل مواجهتها مستحيلة ويشهد على قسوة المناخ كل من زار منغوليا، ففي هذا الصدد ذكر المؤرخ هوارث قائلاً: "إن المناخ بمنغوليا لا يثبت على حال حتى في أواسط الصيف وأن الرعد والبرق الذي يودي بحياة الكثيرين لا يكاد ينقطع والتج يسقط بكميات وفيرة والأعاصير باردة والرياح

شديدة الهبوب إلى حد يصعب معها بقاء الرجل على سرجه^(١٦). ومن ثم فقد أعطى المؤرخ هوارث صورة واضحة عن مدى الصعوبة البالغة التي مثلتها البيئة على المعيشة في مناطق سكنى تلك القبائل المغولية.

إن الظروف الجغرافية والمناخية لمنغوليا جعلتا من اقليمها قفراً لأن الجبال المحيطة بتلك الهضبة منعت عنها الرياح الدافئة الممطرة في فصل الصيف فضلاً عن البرودة الزائدة في فصل الشتاء ولذلك نرى أنهم أظهروا القدسية للماء الذي كان عند المغول المنقذ لهم من الموت وطريقاً نحو الحياة فجاءت مدارك أفكارهم بشيء من الأسطورة المتأثرة بالبيئة حتى عد كل من يغتسل بالماء لشدة تقديسهم له أوجب قتله، وقتله إذ اغتسل أو غسل ملابسه فيه أو نجس الماء أو اغترف منه بغير الأواني الفضية أو الذهبية اعتقاداً منهم أنهم إذا لم يظهروا احترامهم للماء غضب عليهم إله الماء ومنعته عنهم حتى يموتوا من العطش^(١٧) لذلك لا يغتسلوا بالماء إلا عندما تبلى ملابسه فيغسلون مرة واحدة في السنة، وفي ظل ما تركته البيئة على مداركهم من آثار اعتقد المغول بضرورة احترام بعض الحيوانات التي لم تكن محل صيد أو قتل عندهم لأنها مرتبطة بالإله، وفي الوقت نفسه كانت سبباً في عيشهم أوقات القحط والجوع ووفرت لهم قوتهم متى ما كانت تقسوا عليهم الطبيعة سواء في جفافها أو قسوة برودتها فينعدم عندهم الطعام فلا يجدون إلا ما جادت به عليهم الألهة ومن تلك الحيوانات الخيول البيضاء والتي كانت توفر لهم اللبن ويسمى ألبان الأفراس أو ما يطلق عليه (كومس) بمعنى اللبن المخمر وأن كان المغول يستخرجون اللبن من الغنم والبقر وكانت تلك الحيوانات تذبح من قبلهم وتأكّل لحومها إلا أن الظروف المناخية القاسية التي تعرج على مناطقهم تؤدي إلى موت تلك الأغنام والأبقار ولا تصمد إلا الخيول لذلك لا يجزعون على قتلها لأنها في اعتقادهم محمية من الالهة كي تحميهم من حالات الجوع التي تعصف بهم في بعض فصول السنة^(١٨). ومن ثم فإن تلك الأفكار التي نسجت بالأساطير حول الماء والحيوانات أمن بها المغول تحت تأثير المتغيرات البيئية التي عاشوا في كنفها.

ولم يقف أثر البيئة عليهم إلى حد الكلاً والماء فحسب بل أثرت البيئة حتى على صفاتهم الجسمانية والتي جاءت متناسبة مع البيئة التي شبوا في أحضانها فقد تميز المغول بالرأس الكبير والوجه العريض والأسنان القوية والرقبة القصيرة والصدر الواسع والساقين القصيرتين المقوسيتين وقصر القامة والبشرة الصفراء السمكية وتسبب فقر البلاد وقلة الغذاء وقسوة المناخ بنحول الوجه وبروز عظم الخد وقصر القامة منذ أمد بعيد كما إن البشرة السمكية والجفون المسترخية التي حباهم الله بها تقيهم الرياح العاتية التي يتعرضون لها

في بلادهم المترامية في معظم أيام السنة، أما اعوجاج الساقين فسببه قضاء المغول رجالاً ونساءً معظم أوقاتهم على ظهور جيادهم ذات الركاب القصيرة^(١٩).

وعليه فإن تلك البيئة الجغرافية القاسية جعلت المغول يعيشون تحت رحمتها الأمر الذي دفعهم إلى الخضوع لتقلباتها المستمرة ما بين حرارة شديدة وبرودة قارصة وانعدام الماء والكلاء إلى محاولة إرضاء الآلهة حتى ترضى عنهم الطبيعة ولا تغضب عليهم لغضب الآلهة ومن ثم كونت لنا تلك البيئة الصعبة أفكاراً أسطورية تحاكي بيئتهم التي عاشوا في كنفها سعيًا لإرضاءها وطلباً للحياة المطمئنة التي توفرها الآلهة لهم .

ثانياً- إيمانهم بالأساطير:

إن الحديث عن المغول وإيمانهم بالأساطير القديمة المحفوفة بالمبالغات يتداوله الكثير من المؤرخين الذين تناولوا تاريخ المغول وكأن المغول الشعب الوحيد الذي يؤمن بالأساطير والخرافات، في حين أن الباحث يستطيع أن يجد هذه الأساطير مسجلة في كل تواريخ العالم.

وقد تحدث (ديورانت) في كتابه (قصة الحضارة) عن الأساطير والخرافات التي كانت منتشرة من أيام اليونان والرومان فيذكر الأساطير، والخرافات، والفأل والطيرة، والعفاريت، والهولاء، والسحر، والتنجيم، بقوله: "كانت توجد في العالم الوثني، ولا تزال توجد في هذه الأيام... وكانت ذات سلطان قوي عند الأقوام السامية، وأضح لها الغلبة بعد أيام ابن رشد وابن ميمون، وحطمت فيما بين القرن السادس والحادي عشر أنوار الثقافة في غربي أوربا، وغمرت عقول الناس في العصور الوسطى في بحر زاهر من الآراء الغامضة والخفية والسادجة التي تصدق كل ما يقال بعيداً عن المعقول"^(٢٠).

كذلك ما أورده جواد علي في كتابه (المفصل في تاريخ العرب) عن رواة الأخبار في أيام العرب في الجاهلية إذ كان هؤلاء من الشخصيات المحببة إلى نفوسهم لأنهم كانوا يقصون القصص المسلية مستمدين مادتهم من الأساطير والخرافات السائرة المتنقلة بين الأمم، ومن الأخبار والأحاديث الخرافية والتأريخية المأثورة عند العرب أو من جاورهم.

ومن ذلك قصص الأقوام القديمة، وقصص الملوك مثل الزباء، التي كيت قصتها وابتعدت عن التاريخ وقصص جذيمة الأبرش والتتابعة وغيرهم، له أصل تاريخي لكنه تغير وتبدل حتى صار من الأساطير^(٢١).

ولا نريد أن نذهب بعيداً في البحث فالمغول في حقيقة الأمر مثلهم مثل باقي الشعوب قد آمنوا بالأساطير والخرافات القديمة من أجل تغطية تاريخهم، وتمجيد أبطالهم؛ لذلك ظهر في تاريخهم الكثير من الأساطير التي أشار لها المؤرخون تلك التي ترتبط بحياة المغول ارتباطاً وثيقاً، ولعلهم في هذه الأساطير أرادوا أن يرفعوا من منزلتهم، وأن هناك عناية إلهية اختصت بهم وأحاطتهم ووفرت لهم العناية والرعاية وحمايتهم من كل ما يحيط بهم.

وفي ظل فكرهم الأسطوري حاولوا أن يضيفوا على تيموجين وتاريخ أسرته الكثير من الأساطير التي ثبتت عظمة هذه الأسرة وتاريخها؛ لذلك تداولوا الكثير من القصص الأسطورية التي تتعلق به ومنها ما ورد عن جدته مودنجة^(٢٢)، من أنها كانت متزوجة ولديها ولدين وهما بكتتوت والآخر بلكوت ثم مات زوجها وتايغت وحملت وهي أيم فأنكر ذلك عليها فذكرت: "أنها رأت في بعض الأيام أن نور قد دخل عليها ثلاث مرات، وقالت لهم: إن في حملها ثلاث ذكور فإن صدق ذلك عند الوضع وإلا فأفعلوا ما بدا لكم" فوضعت ثلاث توائم حسب زعمهم^(٢٣). ولعلنا عندما نمعن النظر في الرواية نجد تاليه أسرة تيموجين.

وعندما نتواصل مع أساطيرهم نجد هذه الرواية ترتبط برواية أخرى ذكرها أحد زعماء المغول إذ يقول: "كلمني الله وأخبرني أن الأرض سيرثها تيموجين وأبنائه وسيلهم الله العدل ولن يعدل عنه مطلقاً حتى تبلغ قوته أقصاها ويزداد حشمة ويحلو بحلاوة الملك"^(٢٤).

ومن الأساطير التي ارتبط بشخص جنكيز خان أنه مرتبط بإله السماء ما ذكره بعضهم من أن جنكيز خان ذهب إلى قمة جبل وفك حزامه وأخذ يدعو "آه يا ربي العظيم القديم، يا عالم الغيب وكل الأبناء منذ عهد وعهود وحد من يعلم أن التالي خان يكن العداء لي وينوي قتالي... أسألك أن تساعدني وتسخر جميع مخلوقاتك من أنس وجن لمساعدتي أيضاً، وأنه بعد ذلك صلى بكل خشوع وتحقق مطلبه"^(٢٥).

إن هذه الروايات الأسطورية المذكورة عن تاريخ المغول تؤكد لنا أنهم بسبب طبيعتهم البدوية كانوا يؤمنون بها إيماناً عظيماً مطلقاً، فقد رفعت من شأن جنكيز عند المغول، فجنكيز من صنف الآلهة التي تجمع صفتي البناء والهدم معاً فلا مفر من سفك الدماء والنهب والدمار لخلق عالم مثالي وكان يحضى بمساعدة الشياطين ليهب لقومه السعادة والنعالي والثروة .

ونجد أن تمجيد الزعيم أو القائد عند كل الشعوب إذ أنهم عندما يريدون أن يرسموا صورة البطل يضعون له الأساطير التي تمجده وقد امتدت هذه القسمة حتى في العصر الإسلامي نجد ذلك واضحاً في تاريخهم فالمؤرخون العرب قد حاولوا أن يرسموا صورة القائد طارق بن زياد بصورة البطل الأسطوري من انه عند عبوره خطب جنده بلغة العربية الفصحى: "أيها الناس: أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ... ألخ" على حين أنّ طارق بربري لا يتكلم العربية، إذ ذكر المؤرخ المصري محمد عبد الله عنان أن حوادث الفتح أحييت بطائفة كبيرة من الأساطير والقصص وهو ليس إنكار لعبور طارق ولكن الروايات حول العبور أحاطتها الأساطير^(٢٦).

فالمغول مثلهم مثل بقية الشعوب صنعوا الأساطير لتمجيد أبطالهم، وما يتعلق أيضاً بإيمان المغول بالأساطير هو ما يرتبط بطقوس الجنازة إذ إنهم إذا مات أحدهم يقومون بدفنه في حفرة عميقة في الأرض واضعي أسلحته ومقتنياته معه وإذا كان رفيع المستوى دفنوا بعض خدمه ومحضياته حتى يعملون في خدمته كما يدفنون معه حصانه إيماناً منهم بأنّ عالم الموت مليء بالحروب^(٢٧).

ومن الخرافات التي شاعت عندهم أنهم يدورون حول بيت الميت على الخيل سبع مرات ويصرخون صرخات حزينة وعندما يقفون أمام الباب يجرحون وجوههم بالسكاكين حتى لينزل الدم مع الدموع كما أنهم اعتقدوا في خلود الروح وأنّ الحياة الأخرى هي كل شيء^(٢٨).

وفي هذا الموضوع ذكر ما ورد عن ماركو بولو وأنه شاهد بنفسه إذ قال: "يحمل فرسان المغول جميع خاقاناتهم وخاناتهم الميتين إلى قمة جبل التاي، وهم يذبحون كل إنسان يصادفهم مرديدين إذ ذهب وأخدم سيّدك" فهم يؤمنون أنّ كل من يذبح بهذه الطريقة سيكون بخدمة السيد المتوفي في العالم الآخر^(٢٩)، وهذه بالتأكيد أساطير توارثتها بعضهم عن بعض فأمنوا بها وعملوا عليها.

إنّ ذلك يعطينا صورة واضحة أنّ المغول يؤمنون بالأساطير وهي منغوسة في نفوسهم واعتقادهم وإيمانهم بالأساطير لما اعتقدوه أن هناك معارك وحروب في العالم الآخر، كذلك إيمانهم أن من يقتلونه سوف يذهب لخدمة سيده.

ولعل ما نقرأه عن قصصهم الشعبية التي أوردها (جورج لاين) في كتابه (عصر المغول) ما يوحي أنّ المغول كانوا يستمعون إلى الأساطير ويؤمنون بها ثم إنّ هذه الحكايات لا يمكن أن تتطلق وتردد بكثرة إلا إذا كان الناس يؤمنون بها وبعض هذه القصص مرتبطة بذكر الحيوانات مثل فرس النهر والسنونو والدبور والكلب الجشع^(٣٠)، ما يوحي بأنهم كانوا يروون هذه القصص الأسطورية بسبب طبيعتهم البدوية، وإن الظروف البيئية والجغرافية تؤدي دوراً أساسياً في التأثير على نمط الحياة والسلوكيات والعادات والتقاليد والمعتقدات والنفسيات لدى مختلف الشعوب والأمم مما يحتم الانتباه إليها عند دراسة تاريخ كل شعب أو أمة، إذ لا يمكن أن نروى هكذا روايات أسطورية في المجتمعات المتحضرة.

ولا بد من القول "إنّ الأحداث الأسطورية المختلفة لدى الشعوب المغولية تكاد أن تكون معقدة لاسيما فيما يتعلق بقضية الإله والسماء والأرض إذ تشير الأحداث الأسطورية في الحديث عن إيفاد أسطورياً أمثال أوسيرفاني وفجراباني وتساكان - سوكورني هؤلاء نزلوا من السماء على البحر الأولي فطلب أوسيرفاني من رفيقه أن يغطس ويحمل له الطمي وبعد أن نشر الطمي على سلحفاة، نام الإثنان فوصل الشيطان سلموس الذي جهد لاغراقهما ولكنه بمقدار ما كان يحركهما كانت الأرض تكبر"^(٣١). وفي أسطورة أخرى ذكر أنّ "أوسرمان الذي يعيش في السماء أراد خلق الأرض وبحث عن رفيق فوجده في تساغان - سوكورني وأرسله ليفتش عن الغضار باسمه إلا أنه قال: "بدوني لن تستطيع الحصول على الغضار" عندئذ سألت المادة من بين أصابعه. وغاطساً للمرة الثانية أخذ الطين هذه المرة باسم أوسرمان وبعد الخلق عاش سولموس الذي طالب بجزء من الأرض تماماً بما يستطيع أن يلمسه بطرف عصاه وضرب سولمرس التراب بعصاه فظهرت الأفاعي"^(٣٢). ومن ثم يتضح من خلال ما أوردنا في موضوع هذه الأسطورة أن مسألة خلق السماوات والأرض جاء بصراع متضاد بين أشخاص يمتازون بالأسطورة كلاً منهم يحاول إظهار مدى القوى التي يتمتع بها على الأرض كما تظهرها لنا هذه الأساطير.

ثالثاً- إيمانهم بالخرافات:

إنَّ الخرافة هي الاعتقاد المبني على التخيلات وقد ارتبطت الخرافة بتاريخ المغول ارتباطاً وثيقاً دقيقاً إذ انتشرت بينهم الكثير من الخرافات والعادات السيئة.

ومنها أن المغول كانوا يعتقدون أن للشياطين تأثيراً كبيراً على حياتهم، وكانوا يخشون السحر، ويخافونه لذلك فقد تضمنت (الياسة) أحكاماً شديدة رادعة توقع كل من يُتهم بالسحر والشعوذة بقصد الاضرار بالغير^(٣٣)، وكانوا ينظرون إلى طائفة الكهنة من البوذيين على أنهم وحدهم يستطيعون إبطال السحر^(٣٤).

وعرف كل واحد من السحرة باسم (نحشي)^(٣٥)، وكان هؤلاء الكهان يزعمون أنهم يستطيعون تسخير الشياطين، كما أن ذوي الأرواح الشريرة يألفونهم ويأتمرون بأمرهم، وأنهم قديرون على التنبؤ بالغيب عن طريق تحضير الأرواح وجرت عادة المغول على أن يبرموا الأمور وفق ما يشير به هؤلاء الكهان^(٣٦).

ومن الخرافات التي كان يؤمنون بها هي أنهم كانوا يلجأون إلى طريقة يعتقدون أنها تعينهم على التنبؤ بالغيب وكشف الأسرار وتتخلص "أنهم يصفون عظم كتف خروف مدة من النار حتى يسود، ثم ينظرون فيه بدقة فإذا كان سليماً لم تؤثر فيه النار ولم يحدث فيه كسر عرفوا أن إبرام هذا الأمر سوف يأتي على وفق ما يرام فيمضون في طريقهم، أما إذا جاءت النتيجة خلافاً لذلك وأنكسرت العظام أو احترقت، عرفوا أن ما يقدمون عليه سوف لا تكون عاقبته سليمة فيمتنعون عن المضي"^(٣٧).

وقد ظهرت الخرافات حتى في علاجاتهم الصحية إذ كانوا يؤمنون بها إيماناً مطلقاً ومنها تمرغ العضو المصاب بأعضاء حيوانات حية، وقد جرى وضع أحد المرضى كاملاً داخل معدة ثور فشفي تماماً بعد تمرغه بالدم الحار^(٣٨).

ومما ذكر في هذا المجال أيضاً أن أحد قواد جنكيز خان وهو (هوي هوي) أصيب بعدة سهام وسال الدم من كل جسمه فذهب جنكيز خان إلى عيادته وأمر بسحب السهام من جسده وطلب له ثور وأمرهم بفتح معدته وإدخال شيء حار فيها وبعد مدة قصيرة من تمرغه بالدم الحار شفي تماماً^(٣٩).

ومن الخرافات التي كانت شائعة لديهم أنهم كانوا يرون أرواحاً ترقص وتقفز عند بوابة السماء. ولم تكن هذه سوى الأضواء اللامعة، كذلك وخز في نفوس بعض منهم أنه بدون الأذكار والأوراد والطقوس التي يلجأ إليها الساحر لا يمكن أن ينزل المطر والثلج^(٤٠).

ومن خرافاتهم التي كانوا يؤمنون بها أنهم كانوا يعتقدون أن المريض ملوث نجس فإذا مرض مريض عندهم يتركونه في الخيمة ولا يسمحون بالدخول عليه سوى من يخدمه ويضعون في باب الخيمة حربة ملفوفة بالصوف الأسود وهي علامة أن من بداخلها مريض، وإذا اشتد به المرض يتركه الجميع^(٤١). وهكذا نجد أن المغول يؤمنون بالخرافات، التي شكلت جزءاً من حياتهم الاجتماعية.

الأساطير والخرافات وأثرها في قوانين المغول ومعتقداتهم:

أولاً- أثرها في القوانين:

اقتضت حياة المغول على الرغم من بدائيتها وبساطتها أن تكون لهم قوانين قبل جنكيزخان ولكنها لم تكن مدونة وقد أعاد جنكيز خان النظر في هذه القوانين فرد بعضها وقبل معظمها عرفت بـ(الياسا)^(٤٢) إلا أن هذه القوانين كانت متأثرة بالأساطير والخرافات بشكل ملفت للنظر إذ أنها تضمنت بعض الأمور التي تحمل المغول على الالتزام بها وهي مجموعة من العادات والتقاليد عندهم. فعلى سبيل المثال عومل الماء باحترام وكان يعاقب كل من يلوثه بالتبول أو غسل الملابس وقد اعتبرت المياه كائنات حية مبددة^(٤٣). كما تجنبوا قدر المستطاع إهراق دم النبلاء على الأرض فيعدمون الملوك والحكام وطبقة النبلاء بطريقة خاصة بلغهم باللباد كي يمتص دمهم قبل أن يسيل على الأرض^(٤٤). وحرّموا غسل الأيدي والثياب في المياه الجارية واعتبروا ذبح الحيوان بقطع حلقة من الجرائم التي لا تغتفر^(٤٥).

والغريب أنهم تصوروا أنه إذا جلس شخص في الماء وقت الربيع أو الصيف، أو غسل يده في النهر ووضع الماء في أواني ذهبية أو فضية نصّت الياسا على عقوبات تتفد فوراً فيمن يقتترف هذه الخطايا لأنه ينتج عن هذا كله رعد وبرق كثير وهو أخشى ما يخشاه المغول^(٤٦). كذلك وقرت بعض النفوس وهم الكهان الذين يعملون التعاويذ والطقوس لأن بدونهم لا يمكن أن ينزل المطر والثلج^(٤٦).

وعليه فإن ألياسا هي مجموعة من الطقوس والقوانين التي كانت سائدة قبل جنكيز خان فقام بجمعها وتطبيقها واتخذها دستوراً لدولته إلا أنها ضمت في بعض قوانينها شيء من الخرافات والأساطير التي تم تنسيقها وتعديلها بما ينسجم وحياء تلك القبائل المغولية .

ثانياً- أثرها في المعتقدات الدينية:

قبل الحديث عن أثر الأساطير والخرافات في المعتقدات الدينية عند المغول لابد من القول أن المعتقدات الدينية قديمة قدم وجود الإنسان على سطح الأرض إلا أنها صعبة التحديد بدقة من حيث الزمان والمكان والتعريف لأن تلك الدقة في التحديد غير معروفة بعد عن الإنسان نفسه ومع ذلك يمكن القول أن الإيمان بالدين وجد في مناطق عديدة من العالم وبين أقدم الجماعات البشرية التي عثر المنقبون الآثاريون والانثروبولوجيون في مواقع استيطانهم على مخلفاتهم التي لها علاقة بالدين^(٤٧) .

إن الدراسات المقارنة للأديان القديمة تدل على أن العقائد الدينية فيها كثير من عناصر الشبه والاختلاف وأن عناصر الشبه بينها أقوى وأكثر من عناصر الاختلاف وسبب ذلك قد يعزى إلى انتشار الأفكار الدينية من مراكز نشأت فيها لأول مرة بشكل مستقل لأن أهلها كانوا يعيشون في ظروف متماثلة ويقصد بالظروف المتماثلة في المراحل الأولى من نشوء العقيدة الدينية الأولال الطبيعية والاجتماعية التي عاش فيها الإنسان منذ أقدم العصور فضلاً عن قدرته العقلية المحدودة التي لم تمكنه من إدراك وتفسير ما يحيط به من ظواهر الطبيعة ومن ثم فالشبه بين الآراء والأفكار الدينية قد يكون سببهما كما يراها البعض كامل الأصالة والانتشار^(٤٨) .

إن الحياة البدائية لدى القبائل على اختلافها كانت محفوفة بالأخطار والكوارث ويندر أن يكون موت الإنسان في تلك الظروف موتاً طبيعياً وقبل أن يتقدم العمر بالإنسان بزمان طويل كانت أكثرية الناس تموت بسبب فتك الحيوانات الضارية بهم أو اعتداء بني جنسهم عليهم أو لإصابتهم بمرض ولذلك كان الإنسان يعتقد أن كائنات خارقة هي التي تسبب له الموت أو المرض أو الجوع فالخوف من الموت ومن نتائج الحوادث الخطرة والدهشة من الأمور التي لم يستطع إدراكها دفعه لاستعطاف الالهة لكسب رضاها خوفاً من غضبها عليه وتعرضه للموت أو الجوع أو المرض وعلى هذا الأساس نشأت لدى الإنسان آنذاك البوادر الأولى لعقيدة الفكر الديني^(٤٩) .

ولطالما اختلفت آراء الباحثين والمعنيين بتاريخ الأديان في تحديد مفهوم مقبول لدى الجميع لموضوع الدين وربما لا يوجد موضوع اختلفت في تحديد الآراء مثل موضوع الدين وتعريفه حتى صار من الصعب جداً وضع إطار متفق عليه لصورة تمثل الدين فإذا عرفنا الدين بأنه عبادة القوى الخارقة الكامنة فيما وراء الطبيعة فلا بد لنا أن نلاحظ أن جميع البشر كانت لديهم معتقدات وشعائر ديني منذ بداية حياتهم والاعتقاد بأن الدين ظاهرة عامة نعم البشر أجمعين هو اعتقاد سليم لاسيما وأن العقيدة الدينية قديمة ترجع في قدمها إلى ظهور الإنسان على سطح الأرض .

وقد عرف بعض العلماء الدين أنه إيمان بكائنات روحية تكون فوق الطبيعة والبشر يكون لها أثر في حياة هذا الكون في حين عرفه آخرون أنه استمالة واسترضاء لقوى هي فوق قوى البشر يؤمن أنها تدير وتدير سير الطبيعة وسير حياة الإنسان^(٥٠) .

في حين يرى بعض الباحثين أن الدين هو شعور وتفكير عند فرد أو جماعة بوجود كائن أو كائنات إلهية والصلة التي تكون بين هذا الفرد أو تلك الجماعة وبين الكائن أو الكائنات الحية وهناك تعريفات وحدود كثيرة للدين نشأت عن اختلاف وجهات نظر الباحثين بالقياس إلى مفهوم الدين فهناك مسائل كثيرة مختلف دخولها في نطاق الدين كما أن مفهوم الدين قد تغير باختلاف العصور وللدين مما قيل في تعريفه شعائر تظهر على أهله فتميزهم عن أتباع الديانات الأخرى وتطبعهم بطابع مميز خاص^(٥١) .

وفي ظل تلك الاعتقادات الدينية التي كانت تحاكي الطبيعة اعتقدت قبائل المغول بحكم فطرتها البدوية كغيرهم من قبائل البدو في ظل الطبيعة لذلك عبدوا السماء والأرض فكثيراً ما وردت في نقوش أورخون وهي أقدم نقوش لتلك القبائل ثم العثور عليها على ضفاف نهر أروخون حملت تلك النقوش عبارة (تورك كوكى) أي السماء وعبارة (تورك يرصوى) أي الأرض وكانت السماء والأرض والماء يكونون آلهة بالنسبة لتلك القبائل في بدايتها الأولى ومن اعتقاد تلك القبائل المغولية التي تعود في أصولها إلى قبائل ترك ان خيمة ملك الترك تفتح نحو الشرق تبجلاً لتلك الجهة من السماء التي تشرق منه الشمس، وفي كل عام يقوم المتيسرون من أفراد القبيلة بتقديم الضحايا والقربان على قبور آبائهم وأنهم أيضاً كانوا يحجون على الرغم من وثنيهم في الأيام العشر الثانية من الشهر الخامس إلى جبل الذهب ويعرف باسم (النون - داغ بالصينوس) حيث يعتقد المغول أن روح السماء تسكن ذلك الجبل والذي كانوا يسمونه بـ(تنجى) أي إله أو روح السماء^(٥٢) .

وفي ظل المعتقدات الدينية التي غلب عليها الطابع الأسطوري، فقد عبد المغول الشمس والقمر والجبال والأنهار والعناصر التي عبدوها خمسة هي الأرض والخشب والمعدن والنار والماء، كما أنهم قدسوا الماء والهواء فضلاً عن تقديسهم الماء الجاري والمعدن القوي الذي يصنع منه السلاح والآلات الحرب وهو الحديد حتى جاءت أسمائهم تدل على قدسيتهم للحديد أمثال تيمور وتيموجين إذ حملت أسمائهم معنى الحديد ذات الأصل الديني . وتحولت عبادة العناصر المتعددة إلى عبادة السماء وهي عبادة معروفة بالسمنية. ففي مخيلة العامة أن السماء والأرض تتملآن بالأرواح والجان والشياطين مما دعاهم أن يتوجهوا بعبادتهم نحو السماء ومن أساطيرهم التي آمنوا بها أنهم اهتموا بموتاهم وتقديسهم وتقديم القرابين لهم، وكانوا يحزنون حزناً شديداً لموتهم لاعتقادهم في خلود الروح وإن الحياة الأخرى هي كل شيء^(٥٣). وعليه فإن إيمان المغول بالأرواح في السماء والأرض جاءت متأثرة كما ذكرنا ذلك بالمؤثرات الطبيعية التي أحاطت بهم فأثروا بها وتأثروا فيها ومن ثم بنيت أفكارهم واعتقادهم الديني بالمؤثرات البيئية التي غلب عليها الطابع الأسطوري .

وقد اعتنق المغول الديانة الشامانية^{*} وهي ديانة كما يراها بعضهم قائمة على الوثنية وتركز على عبادة عوامل الطبيعة على عادة المجتمعات البدوية، وتفترض الشامانية بأن بعض الناس يستطيعون إرادياً ربط التواصل مع اللامرئي بحيث يتمكنون من رؤيته ومعرفته خلافاً لأناس آخرين لا يستطيعون إلا الشعور والتأثر به .

والعقائد الشامانية تظهر عند المغول في مراسيم الجنائز والدفن إذ كانوا يقيمون إلى جوار قبور جنودهم تماثيل لهؤلاء وكانت هذه التماثيل تسمى (بلبال) وهي ذات أصول صينية، والشامانية عقيدة بدائية لا تقوم على أسس أخلاقية فيقال أنها بمعنى أحد الأرواح من الجن وليس معنى إيمانهم باليوم الآخر أنهم يؤمنون بيوم الحساب وبأنهم سيسألون عما كانوا يفعلون ولذلك فإن القاتل عندهم لا يخاف عقاباً يوم القيامة بل يعتقد أن منزلته في ذلك اليوم تزداد ارتفاعاً بازدياد عدد من قتلهم والدليل على ذلك أنهم كانوا يذبحون الرؤساء العسكريين المأسورين وخدم الخان إلى جانب قبر الخان على اعتقاد ان القتل يصبِحون في العالم الآخر خدماً لقاتليهم أو لمن قتل بأسمهم^(٥٤) .

ولطالما أحكيت الكثير من الأساطير حول أصل الشامان والأساطير في أصل الشامان تبرز فكرتين ذات دلالة عالية أولاً شامان كان مخلوقاً من قبل الإله (أو الآلهة السماوية) ولكنه بسبب تعاسته حدوث الآلهة قدراته وقرر الآلهة تاخري (إله السماء) أن يمنح شاماناً واحداً للبشرية لكي يكافح ضد المرض والموت

المدخلين عن طريق الأرواح الشريرة وقد أرسلت النسر الذي رأى امرأة نائمة فتعاطى معها وولدت المرأة ولداً هو الذي أصبح الشامان الأول إلا أن النسر يحمل أيضاً اسم الكائن الأعلى آجي أي الخالق أو (آجي توجون) (خالق النور) وأبناء آجي يمثلون كأرواح طيور موضوعة على أغصان شجرة العالم وفي القمة يوجد النسر ذي الرأسين الذي يشخص على الأرجح آجي توجون ذاته^(٥٥).

وترى الأسطورة في فكر المغول أن أجداد الشامان الذي تلعب أرواحهم دوراً في الاختيار والتكريس للمدرب تتجدر من الشامان الأول المخلوق من قبل الكائن الأعلى على شكل نسر وكان الشامانيون في الزمن القديم ينالون سلطتهم مباشرة من الأرواح السماوية، ويرى المغول في تلك الأسطورة أن الشامانيون كانوا يطبّرون في الغيوم على أحصنتهم وهم يستطيعون اتخاذ أي شكل وصنع المعجزات .

وعلى هذا الأساس فإن الشامان كان يلعب دوراً رئيسياً في الحياة الدينية للجماعة فهم أي الشامان كما يراهم المغول الأبطال ضد الشياطين، وهم يحاربون الشياطين والأمراض كما يحاربون السحر الأسود وإن العناصر الحربية التي لها أهمية كبرى في بعض نماذج الشامانية أمثال (ترس-حربة-قوس-سهم) وغيرها من الآلات الحربية تفسر بضرورة المعركة ضد الشياطين وهم الأعداء الحقيقيون للبشرية^(٥٦).

ومن بين الوظائف الرئيسية التي يمارسها الشامان هي الاشفاء وبصورة عامة توصف الأمراض بـ(تيه أو اعتصاب الروح) فيبحث عنها الشامان ويأسرها ويعاود ادخالها إلى جسد المريض وأحياناً يكون للمرض سبب مزدوج كسرقة الروح المثقلة بامتلاكها من قبل الأرواح الشريرة والوظيفة الشامانية تقتضي أيضاً البحث عن الروح بأكثر من طرد الشياطين وفي كثير من المرات يشكل البحث عن الروح بذاته استعراضاً تاماً فالشامان يباشر السفر عبر العوامل اللامرئية ليتأكد ان الروح ليست تائهة إلى حد ما في الأقاليم المجاورة أو البعيدة ومن ثم ينزل إلى الجحيم ويماهي الروح الشريرة التي يمسك بها أسيرة وينجح في انتزاعها منه^(٥٧).

وعلى أساس ما ذكرناه فإن الشامان في فكر المغول يفضل أهليته للسفر في عوالم ما بعد الطبيعة ورؤية الكائنات الما فوق بشرية (إلهية-الشياطين) وأرواح الموتى ومن ثم فقد استطاع المساهمة بمعرفة الموت، وكما يرى المؤرخ (مرسيا آليا) في تاريخ أفكاره الدينية أن الشامان كماله معرفة بخيوط الجغرافيا الجنائزية فإن له معرفة أيضاً بخيوط أفكار ميثولوجيا الموت التي هي حصيلة التجارب الوجدانية للشامانيين. فالمشاهد التي يراها الشامان والشخصيات التي يصادفها عبر أسفاره الوجدانية في الآخرة هي موصوفة حصراً

من قبل الشامان نفسه أثناء وبعد الخلاجات النفسية التي تصيبه كطريقة الرعدة أو الرقص على النار أو دق الطبول، تلك الطقوس التي يمارها الشامان وفق تلك الممارسات التي يقوم بها الشامان فإنه يرى أن العالم المجهول والمرعب للموت يتشكل ويتنظم بتوافق مع نماذج متميزة وينتهي بتقديم بنيته مع الزمن مألوفاً ومقبولاً^(٥٨).

ووقف فكر الشامان وما آمن به المغول فهو يرى أي الشامان أن سكان عالم الموت أصبحوا مرثيين فيتخذون وجهاً ويتمسكون بشخصيته وعليه فإن عالم الأموات يغدو معروفاً والموت نفسه مقوم بصورة خاصة كشعيرة للمرور نحو طريقة روحية للتكون في عالم الأموات^(٥٩).

وعندما يستعد الشامان لدخول عالم الموت يتجهز لرعدته ويضرب الطبل ويفقد صراخ الحيوانات وخاصة غناء العصافير ويدعو أرواحها للمساعدة ويتكلم لغة غامضة أو لغة الحيوانات ثم يبدأ بعرض المآثر السحرية كدوران مع النار في محاولة منه للدخول والكشف عن عالم الموت ذلك العالم الأسطوري للآلهة وللشجرة، العالم الذي يكون فيه وفق فكر الشامان كل شيء ممكن حيث يرجع الأموات إلى الحياة وحيث يموت الأحياء من أجل أن يبعثوا بعدئذ إلى الحياة وفي هذا العالم يمكن التلاشي أو الغياب ومعاودة الظهور آنياً وفي هذا العالم أيضاً يرى فكر الشامان أن قوانين الطبيعة تلغى حيث يعيش فيها الفكر بعضاً من الحرية الفوق بشرية، ومن ثم فإن كل تلك الانتشائية السلوكية التي يمارسها الشامان وآمن بها المغول إنما كانت تغذي الخيال وتزيل الحواجز بين الحلم والحقيقة وتفتح الباب نحو العوالم المسكونة من قبل الآلهة والموتى والأرواح^(٦٠).

ومن ثم فإن الشامان في أسطورة المغول هو البطل الديني الذي خصته الآلهة للدفاع عن الحياة والصحة والخصب وعالم النور ضد الموت والأمراض والعقم وسوء الحظ وعالم الظلمات، ويرى المغول في أسطورة الشامان بأن البشرية ليست وحدها في عالم غريب محاطة بالشياطين وقوى الشر، بل أن الآلهة أرسلت لهم الشامان كي يدافع عنهم من كل تلك المخاطر الروحية والمصاعب التي يتعرضون لها قبل سكان العالم غير المرئي التي يكون فيها الشامان هو الوسيط الروحي ما بين العالم المرئي الذي يعيش فيه الإنسان والعالم الغير مرئي الذي يتخوف منه الناس فيكون الشامان إذ صحت العبارة الوسط ما بين العالمين .

والشامانيون كما يراهم بعضهم أشخاص تم اختيارهم من قبل العالم الآخر واختيارهم تم كما لو أنه في قهره للإنسانية يجعل منها مشاركة له وذلك بمنحها جزءاً من سلطته إلى الشامان حتى يستطيع فهم المعنى العميق للأحداث، ويستطيع التخفيف من حدة الشقاء وتأجيل الموت بتأجيل ثمن الدين المستحق وفي المقابل هنالك صلة أو عقدة بين الشامان والعالم الآخر وعليه أن يجعلها محط احترام من ذويه^(٦١).

وتتحدد السلطة الشامانية بطريقتين يمكن للشامان أن يربط صلة متميزة بكيانات من العالم اللامرئي وهي كيانات يسميها الاثولوجيون (الأرواح المساعدة) وكل مجتمع أو شامان يسميها ويحدد طبيعتها وأصلها بطريقته الخاصة ويمكنه أيضاً أن يبعث بروحه متى شاء ذلك إلى العالم اللامرئي وغالباً ما يتعايش النمطان معاً^(٦٢). وهم مع ذلك يسجدون للشمس إذا طلعت^(٦٣)، والشمس تمثل واحدة من عدة أشياء عبدها المغول، كالقمر والنار والرعد والبرق^(٦٤).

وجاء في حديث لأحد ملوكهم وهو منكوخان (١٢٥١-١٢٦٠م) في لقائه مع الرحالة روبركي قال: "... نحن المغول نعتقد بأنّ هناك إلهاً واحداً له نحيا ونموت وعندنا قلب يخفق بحبه، لكن الله الذي أعطى اليد أصابع مختلفة، كذلك أعطى الإنسان طرقاً مختلفة فقد أعطاكم الكتاب المقدس، لكن المسيحيين لم يحافظوا عليه وقد أعطى (الشاماناس) ونحن نفعل ما يأمر وننابه ونعيش بسلام"^(٦٥).

وعلى الرغم من إيمانهم بأنّ الله واحد لكن ذلك لم يمنعهم من اتخاذ أوثان وتمائيل مجسدة في أشكال مختلفة وبخاصة في صور الآدميين وكانوا يصنعون التماثيل لخاناتهم ورؤسائهم ولرب الأسرة بعد وفاته توضع أمام المنزل وتقدم إليها القرابين^(٦٦).

وانتشرت إلى جانب الشامانية الزردشتية فضلاً عن العقيدة البوذية. كما آمن المغول بالعقيدة المانوية وذكر أنّ المانوية أول دين يقوم على أساس أخلاقية يتن اعتناقه بعد الشامانية بوصفهم شعباً له ديانات قديمة^(٦٧).

وفي الوقت الذي ترى فيه الشامانية أنّ قتل الإنسان يفيد يوم القيامة فإن الديانة المانوية لا تكتفي بتحريم قتل الإنسان بل تحرم أكل لحوم الحيوان. ومن ثم جاءت تلك الأفكار الأسطورية متأثرة إلى حد كبير بالتنوع والامتزاج الفكري ما بين الأديان والمعتقدات التي آمنت بها تلك القبائل.

ولطالما أحكيت الكثير من الأساطير ومن الخرافات في عبادتهم للنار وتقديسهم لها من واقع أنها عنصر مطهر، إنها إله منقّ لكل شيء ومن كل شائبة حتى الضرر الناتج عن الأعمال السحرية لذلك عمد المغول إلى إجبار كل شخص من خارج مجتمعهم بين نارين متقدتين لتتقيته من أي شائبة عالقة به أي عمل قد يراود به إلحاق الضرر بالخان أو بأي فرد من أفراد المجتمع وحتى الأضرار بحيواناتهم^(٦٨)، ولعلّ ذلك نابع من اعتقادهم المطلق بأنّ النار تظهر كل شيء.

وكان المغول يفزعون من الرعد والبرق فعند قصف الرعد أو ظهور البرق كانوا يققون مشدوهين صامتين كأن على رؤوسهم الطير وإذا اتفق أن أصابت صاعقة شخصاً ولم يهلك، فإنّ أفراد أسرته وقبيلته يطردونه على الفور ولا يصرحون له بالعودة إلى الخيمة قبل مضي ثلاث سنوات^(٦٩). ولعلّ ذلك نابع من أنهم متأثرين جداً بالخرافات والأساطير فكانوا يخشون العقوبة والانتقال، فهم يخشون قوة السماء الأبدية، فمن السماء تأتي الأعاصير والرعد والبرق والعواصف الثلجية ومن السماء يأتي دفء الربيع الذي يهب الحياة والأمطار التي تتغذى الحشائش^(٧٠).

كما اعتقد المغول في باب خرافاتهم أنّ الهواء أرواح فقد كان من دعاء عندما يصعد إلى قمة الجبل ويدعو ويقول: "إبعث إلي بأرواح طبقات الهواء العليا لتصادفني أما على الأرض فأبعث إلي برجال يكونون عوناً لي"^(٧١)، وكان تيموجين يعتقد أنّه ينتمي إلى الآلهة قبل أن يكون حاكماً على المغول فهو يفخر بأبيه (يسوجاي) لكونه ينتمي إلى السلالة الإلهية التي هو منها^(٧٢).

ومن الخرافات الراسخة عندهم أنّ الميت في عالم الموت إذا كان خائفاً بحاجة إلى خدم ومحضيات لينعم بهن في آخرته ولذلك عندما مات جنكيز خان اختاروا أربعين فتاة بكامل زينتهن ومن نسل الأمراء وأركبوهن في كامل زينتهن وألبسوهن أفخر الثياب وزينوهن بأفضل أنواع الجياد ولكنهم قتلوهن في النهاية، كما قتلوا أجيادهن معتقدين أنّ ذلك إرضاء لروح جنكيز خان^(٧٣).

والغريب أنّ من خرافاتهم أنهم يعتقدون إذا أرادوا استحضار روح أحد من الموات، جاءوا بجثة الحصان الذي تم دفنه وأخرجوا أمعائه بخشبة يجلسون رأسها حتى يصبح مدبباً ثم يغرسونها في فمه لسحب أمعائه التي يحرقونه مع لحمه فقط ثم يقصبون جلد الحصان على خطامه كأن شيئاً لم يكن بعدها يعلقون على شجرة أو في أي مكان مرتفع آخر^(٧٤).

ومن ثم فإنّ كل ما نقل عن تاريخ المغول في بدايته نشأته يكاد لا يتعدى في الأعم الأغلب فيما رواه المؤرخون القدماء والمحدثون وما تناوله المستشرقون في مؤلفاتهم إلا تاريخاً حافلاً بالأساطير والخرافات ولأنّ تاريخ يكاد يكون في الكثير من ملامحه الأولى مجهولاً ولأنّ المغول سعوا جاهدين لأبناء أمجاد تلك الإمبراطورية التي حكمت العالم لعقود طويلة كان لابد من صنع فكرة التاريخ لتلك الإمبراطورية في مراحل نشأتها الأولى فصنعوا لهم تاريخاً عدت بداية ما هي إلا روافداً لفكر بُني على الأسطورة والخرافة.

الخاتمة

في ختام بحثنا (روافد الفكر المغولي في ضوء الأسطورة والخرافة) نسجل بنقاط أهم النتائج التي توصلنا إليها، وهي:

- ١- آمن المغول بالأساطير والخرافات وكان لها تأثيرها الواضح في حياتهم سواء ما كان منها سياسياً أو اجتماعياً أو حتى دينياً وعُدّت جزءاً لا يتجزأ من تاريخهم الطويل والبعيد.
- ٢- عُرِفَ تاريخ المغول بأنّه تاريخ بُني على أسراج الخيول لاسيّما وأنهم شعب مقاتل ومن ثم لم تهيء لهم حياة الاستقرار الوقت الكافي لتعلم القراءة والكتابة لذلك نراهم اعتمدوا على التلقين في نقل أساطيرهم من جيل إلى جيل، تلك الأساطير التي مجدت أغلب الشخصيات المقاتلة التي حقّقت لهم إنجازات أبهرت العالم بأسره، ولعل من تلك الشخصيات شخصية جنكيزخان قائد المغول الأوحد والأقوى في تاريخهم الأسطوري ومن عده المغول بسبب تلك الإنجازات والبطولات الرجل الأسطورة حتى لأطلقوا عليه لقب جنكيزخان أي الأقوى في العالم .
- ٣- أوجدت الأسطورة في الدين طريقاً دائماً لها لاسيّما أن للمعتقدات الدينية فاعليتها في رسم الكثير من الأساطير التي اعتقد بها المغول وأصبحت أفكارهم الأسطورية مناطة بمعتقداتهم الدينية خاصة فيما يتعلق بخلق السماء والأرض والكون .
- ٤- لأن تاريخ المغول في بداية نشأته يكاد يكون مجهولاً لم يوثق أو يكتب لذلك أُلْمِت به الأسطورة وغطت الجانب الأكبر من ذلك التاريخ في بدايته حتى كاد أن يكون تاريخهم أسطورياً أكثر منه وثائقياً.
- ٥- اعتمد تاريخ المغول الأسطوري على أسطورة البطل في تاريخهم فجاءت أسطورة البطل لتحقيق تاريخهم المجهول الذي بُني على الأساطير والخرافات حتى شكّلت تلك الأساطير جانباً مهماً من تاريخهم ومعتقداتهم الدينية، واستطاعوا من خلال أساطيرهم تلك تكوين البداية الأولى لتاريخ الدولة المغولية التي حكمت مساحات واسعة من العالم آنذاك.

هوامش البحث

- (١) ابن منظور، لسان العرب، ج٢/ص ٦٣ .
- (٢) القاموس المحيط، ص ٤٠٧ .
- (٣) أساس البلاغة، ج١/ص ٤٥٤ .
- (٤) النحل، آية: ٨ .
- (٥) جامع البيان، ج١٣/ص ٥٠٣ .
- (٦) يسير، خالد عمر، الأسطورة ووظائفها في ديوان عبد الوهاب البياتي، مجلة دراسات في اللغة العربية، العدد، ٦، ٢٠١٤، ص ١٢٧ .
- (٧) داود، الأسطورة في الشعر العربي الحديث، ص ١٩ .
- (٨) الأسطورة والنظريات الميثولوجية في الغرب، ص ٥ . www.pdfactory.com ؛ بك، مجمل، أز، أحوال ممالك، ص ١٢٤ .
- (٩) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص ٨٠٣ .
- (١٠) جمهرة اللغة، ج١/ص ٥٨٨ .
- (١١) النسفي، طلبه الطلبة، ص ٩٦ .
- (١٢) عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج٣/ص ٢١٠٣ .
- (١٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٧ ؛ أميري، تاريخ مغول، ص ١٢٨ .
- (١٤) مزيان، النشاط العسكري، ص ٢٩ .
- (١٥) المستادي، رحلة قبائل المغول من التمزق إلى التوحد، العدد (٤)، ٢٠٠٩، ص ٦٩-٧٣ .
- (١٦) Howrth, History of the mongol, p233 .
- (١٧) فهمي، تاريخ الدولة المنغولية في إيران، ص ١٢-١٣ .
- (١٨) أبو النصر، تاريخ المسلمين وحضارتهم، ص ١٥٥-١٥٧ .
- (١٩) ديورانت، قصة الحضارة، ج١٧/ص ١٥٩ ؛ ارسلان، عاصمت رمال سوداء، ص ١٢٦ .
- (٢٠) علي، المفصل، ج١٦/ص ٨ ؛ يست، حسياسن جنكيزخان، ص ١٤٦ .
- (٢١) ابن خلدون، المقدمة، ج٥/ص ٥٩٤ .
- (٢٢) القرمانلي، أخبار الملوك، ج٢/ص ٤٨٨ .
- (٢٣) مزيان، النشاط العسكري، ص ١٦٨-١٦٩ .
- (٢٤) لالين، عصر المغول، ص ٢٣٧ ؛ الباد، تاريخ المعتقدات، ج٢/ص ١١ .
- (٢٥) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج١/ص ٤٦ .
- (٢٦) لالين، عصر المغول، ص ٢٣٦ .

- (٢٧) المرجع نفسه والصفحة ؛ ابين، تاريخ فتوحات المغول، ص ١٤٤ .
- (٢٨) أنظر: لاین، عصر المغول، ص ٣٣٩-٣٥٩ ؛ Carpini, the story of mongols, p 133 .
- (٢٩) أليسا، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ص ١٤-١٥ .
- (٣٠) المرجع نفسه .
- (٣١) الصلابي، المغول بين الانتشار والانتكاس، ص ٩٧ .
- (٣٢) الصياد، المغول في التاريخ، ص ٣٥٤ .
- (٣٣) المصدر نفسه .
- (٣٤) لاین، عصر المغول، ص ٢٥٨ .
- (٣٥) لفظ مغولي ومعناه الكهنة البوذيون والمقصود هنا طائفة تدين بالرهبانية والفقر والسحر . عبد الرحيم، رائد، أفاظ مغولية في أدب العصر المملوكي وكتب مؤرخيه (٦٤٨-٨٠٣هـ)، العدد (٤)، ٢٠٠٨، ص ١٣٠٧ .
- (٣٦) الصياد، المغول في التاريخ، ص ٣٥٤ .
- (٣٧) لاین، عصر المغول، ص ٢٠٢ .
- (٣٨) المرجع نفسه، ص ٢٠٢ .
- (٣٩) الصياد، المغول في التاريخ، ص ٣٥٥ .
- (٤٠) المرجع نفسه، ص ٣٥٥-٣٥٦ ؛ عليزاده، جنكيزخان، ص ١٢٣ .
- (٤١) الصياد، المغول في التاريخ، ص ٣٣٨ .
- (٤٢) المرجع نفسه، ص ٥ . والياسا: هي مجموعة من التقاليد الرعوية التي كانت سائدة بين قبائل المغول أسقط منها جنكيزخان التقاليد الذميمة وأضاف إليها ما استعاره من الأمم الأخرى وأخرجه على هيئة قانون، ولم يقتصر على النواحي المدنية أو العقوبات بل قدم نظام رتب فيه كل مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية للمجتمع القبلي. ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧/ص ١٨٣ ؛ الفلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤/ص ٣١١ ؛ المقريزي، السلوك، ج ٣/ص ١٧٨ ؛ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٥٨ ؛ David, the Great Yasa of Ghiniz ;han, p 97-140 .
- (٤٣) محمود، الإسلام في آسيا الوسطى، ص ١٨ .
- (٤٤) المصدر نفسه، ص ١٨-١٩ .
- (٤٥) أبو النصر، تاريخ المسلمين وحضارتهم، ص ٣١ .
- (٤٦) المرجع نفسه، ص ٣١ .
- (٤٧) المرجع نفسه، ص ٣٢ .
- (٤٨) الباور، الأفكار والمعتقدات الدينية، ص .
- (٤٩) المرجع نفسه، ص . وللاطلاع أكثر على الشامانية، ينظر: بيران، الشامانية .
- (٥٠) الباور، الأفكار والمعتقدات الدينية، ص ٢٤ ؛ بيران، الشامانية، ص ٣٢ .
- (٥١) الباور، المرجع نفسه، ص ٢٥ .

- (٥٢) المرجع نفسه، ص ٢٥-٢٦ .
- (٥٣) المرجع نفسه، ص ٢٦ ؛ بيران، الشامانية، ص ٣٢-٣٣ .
- * الشامانية: كلمة شامان أصلها هامان وهي كلمة من لغة التونغوس المسماة ايفنك وهي عرق من الجماعة اللغوية المونغولية المنتشر في سيبيريا إلى حدود الصين والكلمة مشتقة من (صا) أي المعرفة. بيران، الشامانية، ص ١٧ .
- (٥٤) الصياد، المغول في التاريخ، ص ٢٥٤ .
- (٥٥) المرجع نفسه، ص ٢٥٥ .
- (٥٦) لاين، عصر المغول، ص ٢٨٣ ؛ بدر، خمسة اسلام الكبرى، ص ٨٦ .
- (٥٧) لاين، عصر المغول، ص ٢٨٣ .
- (٥٨) الصلابي، المغول بين الانتشار والانتكاسار، ص ٧٨ .
- (٥٩) المرجع نفسه، ص ٩٨ .
- (٦٠) Grousset, the Empir of the steppes, p 188 .
- (٦١) بيران، الشامانية، ص ١٥ .
- (٦٢) المرجع نفسه، ص ١٥ .
- (٦٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣/ص ١٠٤ .
- (٦٤) طقوش، تاريخ المغول العظام، ص ٤٠ ؛ أميري، تاريخ المغول، ص ٧٨ .
- (٦٥) الخالدي، العالم الإسلامي، ص ٣٣ .
- (٦٦) طقوش، تاريخ المغول العظام، ص ٤٠ ؛ Brent, The mongol. Empire, p133 .
- (٦٧) طقوش، تاريخ المغول العظام، ص ٣٣-٣٤ .
- (٦٨) الصياد، المغول في التاريخ، ص ٢٥٤ .
- (٦٩) المرجع نفسه، ص ٢٥٥ .
- (٧٠) الصلابي، المغول بين الانتشار والانتكاسار، ص ٩٨ .
- (٧١) عكاشة، إحصار من الشرق، ص ٣٦ ؛ بارندر، المعتقدات الدينية، ص ٤٢٧ .
- (٧٢) الصلابي، المغول بين الانتشار والانتكاسار، ص ٩٩ .
- (٧٣) لاين، عصر المغول، ص ٢٥٦ .
- (٧٤) المرجع نفسه، ص ٢٥٢ .

المصادر والمراجع

أ- المصادر

• القرآن الكريم

- الأزدي، أبو بكر محمد (ت: ٩٣٣هـ/٣٢١م)
- جمهرة اللغة، ط١، دار الملايين، (بيروت - ١٩٨٧م).
- ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت: ٨٧٤هـ/٤٦٩م)
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر.
- * الجويني، علاء الدين عطاء الملك بن بهاء الدين محمد بن محمد (ت: ٦٨١هـ/٢٨٢م)
- تاريخ جهانكشاي (تاريخ فاتح العالم) نقله عن الفارسية محمد التونجي، (القاهرة ١٩٨٥).
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت: ٨٠٨هـ/٤٠٥م)
- المقدمة، ط٢، دار الفكر، (بيروت - ١٩٨٨م).
- الطبري، محمد بن جرير (ت: ٣١٠هـ)
- جامع البيان في تأويل القرآن، مؤسسة الرسالة، (دم - ٢٠٠٠م).
- ابن العربي، غريغوريوس المالطي (ت: ٦٨٥هـ/٢٨٦م)
- تاريخ الزمان، دار الكتب للطباعة والنشر، القاهرة.
- * الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر (ت: ٨١٧هـ/٤١٤م)
- القاموس المحيط، ط٨، مؤسسة الرسالة، (بيروت - ٢٠٠٥م).
- القرمانى، أحمد بن يوسف (ت: ١٠١٩هـ/١٢٢٢م)
- أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ط١، عالم الكتب، (بيروت - ١٩٩٢م).
- القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (ت: ٨٢١هـ/٤١٨م)
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت.
- * ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل (ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٦م)
- البداية والنهاية، ط١، دار إحياء التراث العربي، (دم - ١٩٨٨م).
- ابن منظور، محمد بن مكرم (ت: ٧١١هـ/١٣١١م)
- لسان العرب، ط٣، دار صادر، (بيروت - ١٤١٤هـ).
- المقرئ، أبو العباس أحمد بن علي تقي الدين (ت: ٨٤٥هـ/١٤٤١م)
- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٧م).
- * النسفي، عمر بن محمد (ت: ٥٣٨هـ/١١٤٢م)
- طلبية الطلبة، المطبعة العامرية، (بغداد - ١٣١١هـ).

- الهمداني، رشيد الدين فضل الله (ت: ٧١٨هـ/١٣١٨م)
- جامع التواريخ، دار النهضة العربية، (بيروت - ١٩٧٣م).
- ب- المراجع
- آليا، مرسيا
- تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ط١، دار دمشق (١٩٨١).
- أميري، محمود
- تاريخ مغول، مؤسسة انتشارات أمير كبير (تهران - ١٣٧٤هـ).
- ايتي، إبراهيم
- تاريخ فتوحات مغول، مركز دراسات إسلامي، (تهران - ١٣٤١هـ-ش).
- بخيت، رجب محمود إبراهيم
- تاريخ المغول وسقوط بغداد، مكتبة جزيرة الورد للطباعة والنشر (القاهرة - ٢٠١٠م).
- بارندر، جفري
- المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة: عبد الفتاح إمام وعبد الغفار مكاي، مكتبة مدبولي للطباعة والنشر، (القاهرة - ١٩٩٦م).
- بيران، ميشال
- الشامانية (فلسفة الحياة) ترجمة: إدريس كثير، أبو ظبي للثقافة والتراث، ٢٠١١م.
- تركماني، أسامة أحمد
- تاريخ الأتراك والتركمان ما قبل الإسلام وبعده، (سوريا - ٢٠٠٧م).
- خنجدي، أحمد
- جنكيزخان دولت مغول، مؤسسة أمير كبير (تهران - ١٣٤٢هـ).
- عليزاده، داو
- جنكيزخان (تهران - ١٣٨٢هـ).
- أبو النصر، محمد عبد العظيم
- تاريخ المسلمين وحضارتهم في آسيا الوسطى وبلاد القوقاز، نوابغ الفكر للطباعة والنشر، (القاهرة ٢٠٠٩م).
- * نوري، محمد أميري
- تاريخ اسلام در آسيا مركز تاحمه مغول، سازمان انتشارات بزوهشگاه، فرهنگ (تهران - ١٣٨٧هـ).
- الخالدي، إسماعيل عبد العزيز
- العالم الإسلامي والغزو المغولي، ط١، مكتبة الفلاح، (الكويت - ١٩٨٤م).

- داود، أنس
- الأسطورة في الشعر العربي الحديث، المنشأة العامة للتوزيع والإعلان، دم - د.ت) .
- ديورانت، كول
- قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب، دار الجبل، (بيروت - ١٩٨٢م) .
- الصلابي، علي محمد محمد
- المغول (التتار) بين الانتشار والإتكسار، ط١، الأندلس الجديد، (مصر - ٢٠٠٩م) .
- طقوش، محم سهيل
- تاريخ المغول العظام (الإيلخانيين)، ط١، دار النفائس، (دم - د.ت) .
- عكاشة، ثروت
- إحصار من الشرق (جنكيزخان)، دار الشرق، (القاهرة - ١٩٩٢م) .
- علي، جواد
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط١، دار الساقى، (دم - ٢٠٠١م) .
- عمر، أحمد مختار عبد الحميد
- معجم اللغة العربية المعاصرة، ط١، عالم الكتب، (دم - د.ت) .
- عنان، محمد عبدالله
- دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، (القاهرة - ١٩٩٧م) .
- لاين، جورج
- عصر المغول، ط١، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة مشروع كلمة، (أبو ظبي - ٢٠١١م) .
- فهمي، عبد السلام عبد العزيز
- تاريخ الدولة المغولية في إيران، دار المعارف للطباعة والنشر، (القاهرة - ١٩٨١م) .
- مزيان، إسماعيل مهدي
- النشاط العسكري للتتار وأثره في قيام الدولة المغولية (٥١٩-٦٢٤هـ/١١٢٥-١٢٢٧م)، ط١، (دمشق - ٢٠١٣م) .
- المستادي، ريهام
- رحلة قبائل المغول من التمزق إلى التوحد، العدد (٤)، ٢٠٠٩، ص٦٩-٧٣ .
- يسير، خالد عمر
- الأسطورة ووظائفها في ديوان عبد الوهاب البياتي، مجلة دراسات في اللغة العربية، العدد (٦)، ٢٠١٤م .
- الأسطورة والنظريات الميثولوجية في الغرب، دار المأمون، ط١، (د.ت) . www.pdfactory.com

ج- المراجع الأجنبية

***Brent, p**

-The mongol Empire, meidenfeld and nicolson, london, 1976.

***Carpini, friar. Giovanni Dipland.**

-The story of the mongols whom mecall the tartars translated withan intreaducation by Erikhildinger 1996.

***Qronsset, Rene**

-The Empire of the steppes, n waiford trans Rutgers university pressnew Bruns mick, n, j 1991.

***David, pron**

-The Great Yasa of Ghiniz khan n, 5, 1988.